﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: 115]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إجـابـةُ طـلـبِ عيسى في المائدة، والاسـتـجـابـةُ المشروطةُ بترك دواعي الكفر

حينما طلب عيسى ﷺ من ربّه أن يُنزّل عليه وعلى أصفيائه مائدةَ طعامٍ منَ السّماء، تكونُ عيدًا مشهودًا، وآيةً باهرةً، ورزقًا ظاهرًا لهم، جاءَت هذه الآية لتفصِّل على طريقة المحاورة، استجابةَ اللّه له، فقال: إنّي مُنزلها عليكم الآن، فكانتِ الآية استجابةً مشروطةً، وليسَت بوعد[1]، فحقَّقَ اللّه لهم وعدَه، فأنزلها عليهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَالَ﴾: القَولُ، مَصدَر قالَ، ومَعناهُ: الكَلامُ على التَّرتيبِ، أو كُلُّ لَفظٍ نَطَقَ به اللِّسانُ، سواء كان مُفيدًا أو لم يَكُن[2]، والقولُ: واحد الأقوال، وجمع الأقوال: أقاويل وأقاول بحذف الياء، وأصله مصدر، قال تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: 34][3]، وقول اللّه وحيٌ لعباده، ومنه ما ورد في هذه الآية: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، فهو وحي اللّه لعيسى بإجابة دعائه، وكلُّ قول منَ اللّه، فهو حقٌّ لاريبَ فيه، وعدلٌ لا جورَ فيه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النّساء: 122]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النّساء: 87].

2) ﴿مُنَزِّلُهَا﴾: التَّنزيلُ: نَقلُ الشَّيءِ من أَعلَى إلى أسفَل، يُقال: نَزَلَ الشَّيءُ، يَنزل، نُزولًا؛ أي: هَبَطَ وانحَدَرَ من عُلوّ إلى سُفل. وأَصلُه: الانحِطاطُ من عُلوّ. والتَّنزيلُ أيضًا: التَّرتيب، وهو: إنزال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/111.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قول).
(3) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (القول).

الشَّيء مُرتَّبًا شيئًا بعدَ شيءٍ[1]، قال الرّاغب في معنى التّنزيل: "ما وصل منَ الملأ الأعلى بلا واسطة، تعديتُه بـ (على) المختصّ بالعلوّ أَولى، وما لم يكن كذلك، تعديتُه بـ (إلى) المختصّ بالاتّصال أَولى"[2]، ومعنى الآية: مُنَزِّلُ هذه المائدة الّتي طلبتم إنزالَها.

3) ﴿يَكۡفُرۡ﴾: الكُفرُ: نَقيضُ الإيمانِ، ويأتي الكُفرُ بمعنى الإنكارِ والجُحودِ، وأصلُ الكُفرِ: السَّترُ والتَّغطيَةُ، يُقال: كَفَرَ الشَّيءَ؛ أي: سَتَرَهُ وغَطّاهُ، ومنه سُمّيَ غَيرُ المُؤمِنِ كافِرًا؛ لأنَّه غطَّى الحقَّ والإيمانَ[3]، "والكفر أربعةُ أنحاء: كفرُ الجحود، مع معرفة القلب، كقوله ﷻ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: 14]، وكفرُ المعاندة: وهو أن يعرفَ بقلبه، ويأبى بلسانه، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: 89]، وكفرُ النِّفاق: وهو أن يؤمنَ بلسانه والقلبُ كافرٌ، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الفتح: 11]، وكفرُ الإنكار: وهو كفر القلب واللّسان، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف: 3]"[4].

والمعنى: يجحد منكم رسالتي إليه، وينكرُ نبوّةَ نبيّي عيسى عليه السلام، ويخالفُ طاعتي.

4) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: العالَم: هو ما يُعلَمُ به الشَّيءُ. ويأتي بمعنى الأنام، والأنامُ: ما على ظَهرِ الأرضِ مِن جميعِ الخَلْقِ. والجَمع: العَوالم. والعالَمون: أصنافُ الخَلْقِ، سُمّي بذلك؛ لاجتماعِهم، وقيل: العالَم هو ما احتَواهُ الفَلَك، وقيل: هو مُختَصٌّ بِمَن يَعقِل مِنَ الإنسِ، والجِنِّ، والمَلائكة، والشَّياطين[5]، "وذلك أنَّ كُلَّ جنسٍ مِنَ الخَلقِ فهو في نَفسِهِ مَعْلَمٌ وعَلَمٌ. وقال قَومٌ: العالَمُ سُمّيَ لاجتماعِهِ. قال اللّهُ تعالى: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٤٥﴾ [الأنعام: 45]، قالوا: الخَلائِقُ أجمَعونَ. وأنشَدوا:

ما إنْ رَأَيتُ ولا سَمِعْـ *** ـتُ بِمِثلِهِمْ في العالَمينا"[6]

والمعنى: عالَمي زمانهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نزل)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/40، والزّبيديّ، تاج العروس: (نزل).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (نزل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، ولسان العرب: (كفر)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 763.
(4) الخليل، العين: (كفر).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والفيّوميّ، المصباح المنير: (علم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

استجابة الله لعيسى، بالإنزال المشروط للمائدة، وأنّه لا عذر بعد ذلك

استجاب الله دعاء عيسى عليه السلام، فأخبره بأنَّه مُنزِّل المائدة عليهم، لكنّ مَن كفَرَ بعد إنزالِ هذه الآيةِ الباهرةِ، فإنَّه تعالى سيُعذِّبُه عذابًا شديدًا، لا يُعذِّبُه أحدًا من عالَمي زمانهم؛ لأنَّه شاهدَ الآيةَ الباهرةَ، فكان كُفرُه كُفرَ عِناد، وحقَّقَ الله لهم وعده، فأنزلها عليهم[1]، ولم يبقَ بعد إنزال المائدة، وهي دليلٌ حسّيٌّ على صدق نبيِّهم عذرٌ لمَن يكفر أو يستهزئُ بآيات الله، وأدلّتِه الدّالّةِ على وجودِهِ وقدرتِهِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

أثرُ الاستئنافِ البَيانيِّ في إبرازِ مُتابَعةِ المُتلقِّي وشَوْقِهِ

فُصِلَ قولُ الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ عمّا قبلُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ ممّا قبلُ، وذلك أنَّ قولَهُ تعالَى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يبعَثُ في نفسِ السّامعِ سؤالًا، وهو: لقد دَعا عيسَى عليه السلام وألحَّ وتضرَّعَ، فبِمَ أجابَهُ اللهُ تعالَى؟ فجاء الجوابُ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

دلالةُ ذكرِ لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾:

لفظُ الجلالةِ (اللهِ) عَلَمٌ لذاته العليَّة، مُستجمِعٌ لمعاني جميع أوصافه الكاملة، وأوصافه الشَّريفة، ما عُلم منها وما لم يُعلم، ولمّا كان الوحي موصولًا بين عيسى وربّه، وهو: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النّساء: 171]، وكانتِ المعجزةُ المطلوبة تحدّيًا لقدرة الله العليا، كان منَ المعقول أن يكون القولُ منَ الله مباشرةً، لا من

لفظُ الجلالة (الله) علَمٌ على ذاته العليَّة المُستحقَّةِ لجميع المحامد الرّضيّة

(1) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 127.
(2) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/519.

غيره؛ للتّدليل على عظيم القُدرة، وأنّه لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

دلالةُ الاستئناف، وورودُ الإجابة بصيغةِ التّفعيل، في قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾:

وعدُ الله بتنزيل المائدةِ حقٌّ لا ارتيابَ فيه، وهو لا يخلفُ الميعادَ

جملةُ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ في محلّ نصبٍ مقولِ القول، استئنافٌ للكلام، إذ بعد إلحاح عيسى بالدّعاء الخاشع والضّراعة المتبتّلة لله تعالى، وردتِ الإجابةُ بصيغة التّفعيل ﴿مُنَزِّلُهَا﴾، وجاء أسلوبُ التّوكيد في السّياق؛ "ليرفعَ أيَّ احتمال للشّكّ عند أقلّ المؤمنين إيمانًا بالله، بأنّ المائدة لم تنزلْ، فكيف يقعُ لعقل عاقل أنّ كلمةَ الله لا تنفّذ، وأنّ قضاءَه لا يمضي؟[1]، وهو الصَّحيح - الَّذي عليه الأكثَرونَ - أنَّها مُنزَلَةٌ؛ لأنّ الله تعالى لا يعدُ شَيئًا، ثمَّ يُخلِفُ، وقد قالَ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، ويكون عدمُ ذكرها في الأناجيل الّتي بأيديهم، منَ الحظّ الّذي ذُكِّروا به فنسوه، أو أنّه لم يُذكَر في الإنجيل أصلًا، وإنّما ذلك كان متوارثًا بينهم، ينقله الخلفُ عنِ السّلف، فاكتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدلُّ على هذا المعنى قولُه: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾. وقال الحسن ومُجاهد: إنّ المائِدَةَ لم تنزلْ أصلًا، فإنَّ الله تعالى لمّا أوعد على كفرهم بعد نزول المائِدَة؛ خافوا أن يكفر بَعضُهم؛ فاستعفوا عَن إنزال المائِدَة؛ فعلى هذا تَقديرُ قَوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني: إن سألتُم، إلّا أنّهم استعفوا فَلم ينزل[2].

نُكْتَةُ التَّأْكيدِ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾:

تَحْقِيقُ اسْتِجَابَةِ اللهِ تَعَالَى بِتَنْزِيلِ المَائِدَةِ

أُكِّدَتِ الجُملَةُ ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ تحقيقًا لِاسْتِجابَةِ الله تَعالَى بِتَنْزِيلِ المائِدَةِ، ولأنَّ ظاهرَ سؤالِهم مِنَ الاستفهامِ عنِ الاستطاعَةِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/80.
(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/80، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/249.

- ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ - يوهِمُ اضْطِرابَهُمْ في الاعتقادِ، فكان الأَنْسَبُ تقويةَ الجملةِ[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْمُسْنَدِ اسْمًا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

الإِعْلَامُ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ بِالِاسْتِجَابَةِ

جيءَ بالمسنَدِ - ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ - اسْمًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ إيذانًا بأنَّهُ سُبحانَهُ مُنجِزٌ وعْدَهُ بالاستجابَةِ، وتأكيدًا لهذا التَّنزيلِ وإشعارًا بالِاسْتِمْرارِ[2].

دلالةُ الظَّرف المقطوع عنِ الإضافة، في قوله تعالى: ﴿بَعۡدُ مِنكُمۡ﴾:

الظَّرفُ وإنْ قُطع عنِ الإضافةِ لفظًا، فإنّه لم يُقطَع عنها معنًى

قوله: ﴿بَعۡدُ﴾، ظرفٌ للزّمان مقطوعٌ عنِ الإضافة، وقد بقي المضاف إليه في النّيّة، والتّقديرُ: أي: مِن بعد نزول المائدة، ومثلُه في القرآن قولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الرّوم: 4]؛ أي: مِن قبْلِ الغلبة ومِن بعدها، فإنْ قُطع عنِ الإضافة لفظًا ومعنًى كان معربًا، نحو: (جئتُ بعْدًا)، ومنه قولُ الشّاعر:

فَساغَ لِيَ الشَّرابُ وكُنتُ قَبلًا *** أكادُ أَغَصُّ بِالماءِ الفُراتِ[3].

وحيث إنَّ المراد هنا بعديّةٌ معيّنةٌ، محدّدةٌ بزمانٍ ما بعد إنزال المائدة، عيّن ذلك بالإضافة، أو بحذف المضاف إليه، وبناءُ (بعدُ) على الضّمِّ، نحو قولنا: (جئتك بعدُ أو مِن بعدُ)، فالظّرف هنا وإنْ قُطع عنِ الإضافة لفظًا لم يُقطعْ عنها معنى، والبعديّةُ هنا قُصِد بها الزّمانُ المعيَّن، ولم يُقصَد بها إلى التّنكير والإبهام[4].

العِلَّةُ من تعدُّد التَّأكيدات في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا﴾:

التَّوكيدُ اللَّفظيّ يُفيدُ تقريرَ المؤكَّد

أكَّد اللهُ تعالى في الآية الكريمة عذابَه للكافر، بآياته بعد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/358، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/111.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/59.
(3) صافي، الجدول: 7/67.
(4) صافي، الجدول: 7/67.

ظُهورها، وقيام الأدلَّة على صِحَّتها بمُؤكِّدات، وهي: حرفُ (إنّ) في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾، والمصدرُ في قوله: ﴿أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾، إذِ المفعول المُطلَق هنا؛ لتأكيد وقوع الفِعل، وهو العذاب، ووصفُ هذا العذاب بأنَّه لا يُعذَّبُ مثلَه أحدٌ منَ العالَمين، وهذه المؤكِّدات لوقوعِ العذابِ على الكافر بآيات الله بعد وضوحها، مِن أسبابه: أنَّ الكُفرَ بعد إجابةِ ما طلبوه، وبعدَ رؤيته ومشاهدته، وبعدَ قيام الأدلَّةِ على وحدانيةِ الله، وكمالِ قدرته، وبعد ظُهورِ البراهينِ الدّالَّةِ على صِدقِ رسولِه، فالكفرُ بعد كلِّ ذلك، يكون سببُه الجُحودَ والعِنادَ والحسَدَ.

والجاحدُ والمعاندُ والحاسدُ، يستحقّون أشدَّ العذابِ، وأعظمَ العِقابِ[1].

دلالةُ اجتماع (إنّ) وخبرِها، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾:

في تصديرِ الجُملةِ الكريمة بلفظ التَّحقيق (إنّ) المُتضمِّنِ نونَ الإفراد؛ للدَّلالة على الوحدانيّة، وجَعلُ خبره اسمًا، وهو قوله: (مُنَزِّل)، تحقيقٌ للوَعد، وإيذانٌ بأنَّ الله تعالى مُنجِزٌ له لا محالةَ، مِن غير صارفٍ يُثنيه، ولا مانعٍ يُلويه[2]، ومنَ الملاحظ أنَّ الله تعالى لم يقُل: (إنّي سأنزلها عليكم)، بل قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، مُعبِّرًا باسم الفاعل، الثّابت الدّائم الفِعل، وهو الَّذي يُسمّيه الكوفيّون الفِعلَ الدّائمَ؛ أي: هي واقعةٌ يقينًا عليكم.

وعدُ الله مُنجَزٌ لا محالةَ، طال الزّمنُ أو قصُرَ

سرُّ تَكرارِ (حرف العَين)[3] في الآية الكريمة، وأثرُه في تلاؤم الألفاظ:

يُلحظُ في الآية الكريمة تَكرارُ حرف العين ستَّ مرّات، ومع ذلك

صـوتُ الحـرف في لغـة العـرب صورةٌ عن معناه

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/342.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/98، والآلوسّي، روح المعاني: 4/59.

(3) قال تقيُّ الدّين الهلاليّ: "حرفُ العين خاصٌّ بالشّعوب السّاميّة الّتي خرجَت من جزيرة العرب، ولا يوجد عند غيرهم، فالشّعوب الّتي ليس في لغتها عين، كالأوروبيّين مثلًا، لا يستطيع الشّخص الّذي لم يسمع العين، ولم يتدرّب عليها مدّة طويلة، لا يستطيع أن ينطق بها أبدًا، إلّا إذا خالط شعبًا ساميًّا كالعربِ، والسّريانيّينَ، والآشوريّينَ، والعبرانيّينَ، والقبطِ، والبربرِ، مدّة طويلة، وقد يخالطهم زمانًا طويلًا، ولا يستطيع أن ينطقَ بها". الهلاليّ، حديث مع زائر كريم، ص: 24.

فإنَّ القارئ لا يحسّ بصُعوبة النُّطق به، أوِ الانزعاج مِن سماعه؛ بل يشعرُ أنَّ تكراره له وظيفةٌ خاصَّة تنسجمُ مع موضوع الآية، وذلك أنَّ صوت العين يتحقَّق فيه صورةُ العذاب، وتكرارُه يُضفي على السّياق انسجامًا رائعًا من حيث رصفُه وتآلفُه مع غيره في السّياق. وهذه الكلمات ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ ﴿بَعۡدُ﴾ ﴿أُعَذِّبُهُۥ﴾ ﴿عَذَابًا﴾ ﴿أُعَذِّبُهُۥ﴾ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

عِلَّةُ التَّعبير بصيغة التَّكثير، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

إنـزالُ المائدة، إظهارٌ للُطف الله وإحسانه، وتأكيدٌ لفضله وامتنانه

عِلَّة التَّعبير عنِ الجوابِ بصيغة التَّفعيل ﴿مُنَزِّلُهَا﴾، المُنْبِئَة عنِ التَّكثيرِ، مع كونِ الدُّعاءِ منه ﷺ بصيغة الإفعال ﴿أَنزِلۡ عَلَيۡنَا﴾؛ لإظهارِ كمال اللُّطفِ والإحسانِ، مع ما فيه مِن مراعاةِ ما وقَع في عِبارة السّائلين[1]، إضافةً إلى ذلك أنَّ التّعبير بـ ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾؛ يعني تحوُّلَ الخطاب من عيسى ﷺ إليهم؛ وبذلك صار التفاتًا في الخطاب؛ لأنَّ اللّه تعالى سيأخذُ عليهم عهدًا مباشرًا، وليس بواسطة عيسى ﷺ.

توجيهُ القراءة في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾، يفسّحُ المعنى، وينوّعُ الدّلالةَ:

تنـوّعُ القراءات القـرآنيّـة استـيـعـابٌ للّسان، وإبـرازٌ للبيان

في قوله تعالى: ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ قراءتان متواتران: إحداهما: ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ بتشديد الزّاي - منَ التَّنزيل، وهي تفيد التَّكثيرَ أو التَّدريج، كما تُنبئُ عن ذلك صيغةُ التَّفعيل، وبهذه القراءة قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر، وقرأ الباقون ﴿مُنزِلُهَا﴾ بكسر الزّاي - منَ الإنزال المفيد لنزولها دفعة واحدة[2]، و"الجمهور أنّها نزلَت، وهو الّذي اختاره ابن جرير، قال: لأنّ اللّه تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾، ووعدُ اللّه ووعيدُه حقٌّ وصدقٌ، وهذا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/98، والآلوسّي، روح المعاني: 4/59.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/256، وابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 135، والفارسّي، الحجّة للقرّاء السّبعة: 3/282، وابن مهران، المبسوط، ص: 189، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/342.

القول هو، والله أعلم، الصّوابُ، كما دلّت عليه الأخبار والآثار، عنِ السّلف وغيرِهم"[1].

سرُّ التّعبير بلفظِ: ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ دون (إليكم)، في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

دقّـــةُ ألـفـاظ القرآن وأناقتُها، تـؤكّـدُ تـفـرّدَ معجزة القرآن وسُموَّها

نلاحظُ أنّ قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾، جاءَت جوابًا لقولهم:

﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [المائدة: 112]، فاستعمل اللّفظ الّذي استعملوه هم، فقالوا: ﴿عَلَيۡنَا﴾ الدّالّةَ على العُلوّ والفوقيَّة، ولم يقولوا (إلينا)؛ لأنَّ (إلينا) فيها معنى التَّقريب لا الفوقيَّة، فهم أرادوا المائدة من فوق، فقال تعالى: آتيكم بها من فوق كما أردتم، وفي تنزيلِها وفق مرادِهم، إلزامٌ لهم بالحجّة، وتأكيدٌ أنَّ الإيمانَ بالآية، والإقرارَ بالرّسول الّذي جاء بها، وبالله – الّذي غيّر بنزولها عليهم منَ السّماء قانونَ كونِه السّاريَ؛ في أنَّ المائدةَ تحضَّر بما خلق الله في الأرض، باتّخاذ الأسباب المألوفة، لا بنزولها، مائدةً مزخرفةً بألوان الطّعام، وقد تهيّأت بإرادة كُنۡ فيكون؛ لتحقيقِ مرادِ الله في إقامة الحجّة على المعاندين، وقطعِ الأعذار عنهم، وإرجاعهم إلى الجادّة.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿عَذَابٗا﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا﴾:

عَـظَـمَـةُ الـذَّنـبِ وَشِـــدَّةُ الـجُـرْمِ تُوجِبَانِ عَظَمَةَ العَذَابِ وَشِدَّتَهُ

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٗا﴾ مِنْ قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا﴾ للدِّلالَةِ على تعظيمِ العذابِ وشدَّتِه، والمَعْنَى: فإنّي أعذِّبُهُ عذابًا عظيمًا شديدًا، ويُقوّي هذه الدِّلالَةَ قولُه ﷺ بعدُ: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/298.

بلاغةُ طِباق السَّلب، في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

يلاحظُ أنّ التَّضادّ في هذا اللَّون منَ الطِّباق، إنَّما هو تضادٌّ صوتيٌّ بإثبات الفعل ونفيِه في آن واحد، فقد أثبتَ العذابَ ونفاه، في الوقت نفسه، كما أنَّ طرفي الطِّباق ليسا محورَ هذا التَّضادّ الأُسلوبيّ، إنَّما المحور الحقيقيّ هو (أداة النَّفي)، إذ يتمّ في ضوئها هذا الانزياحُ الصَّوتيُّ والدَّلاليُّ، كما أنّ الوظيفة الأهمَّ في توظيف طباق السَّلب صوتيًّا؛ هي الكشفُ عنِ الدَّلالة بأبعادها المختلفة، خلال هذه البِنية اللُّغويّة[1]، وهذا مَلمَحٌ منَ الإعجاز الصّوتيّ، تأنسُ به الأذن للقرآن.

إثباتُ الفعل ونفيُه في آنٍ واحد؛ لتأكيد شدّةِ العذاب وقوّتِه

دلالةُ انتصاب ﴿عَذَابًا﴾ على المصدريّة، أو على التّشبيه بالمفعول به:

قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾، وهو"جنس منَ العذاب، لا يعذِّبُ به غيرَهم؛ لأنّهم كفروا بعد أن رأوا منَ الآيات ما لم يرَهُ غيرُهم، فكانوا أعظمَ كفرًا، فصاروا أعظمَ عذابًا"[2]، وفي لفظ: ﴿عَذَابًا﴾ وجهان: أوّلهما: أنّه اسمُ مصدرٍ منصوبٌ على المصدريّة، بمعنى: التّعذيب، وهو مفعول مطلق من نفس لفظ الفعل ومعناه، أو مصدرٌ على حَذفِ الزّوائد، نحو: (عطاءً) للفعل (أعطى)، والثّاني: وهو قول أجازه أبو البقاء العُكبَريُّ؛ "بأن يكون مفعولاً به على السّعَة، يعني: جَعل الحَدَث مفعولاً به مبالغةً، وحينئذٍ يكون نصبُه على التّشبيه بالمفعول به، كمعمول الصّفةِ المشبّهة، والمصدر، والظّرف المتّسع فيهما[3]، والمعنى في ذلك: سيكون عذابًا مُستحقًّا، سوف يَصِلونه يقينًا، بما كان منهم من مخالفة بعد أن أراهم الله دلائلَ قدرته، وألزمَهم الحجّة بإنزال المائدة المطلوبة.

المخالفُ بعد رؤية الخوارق، يستحقُّ عذابًا مغلّظًا جزاءَ عنادِه

(1) جاب الله، جماليّات التّلوين الصّوتي في القرآن الكريم، ص: 101.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/86.
(3) السّمين، الدّرُّ المصون: 4/509.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿أَحَدًا﴾:

جاءَ التَّعبير بلَفْظِ ﴿أَحَدًا﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قصدًا لإرادَةِ العُموم، وذلك أنَّ لفظَ ﴿أَحَدًا﴾ نكرَةٌ واردٌ في سياقِ النَّفْيِ فتَعُمُّ، وكلمةُ (أحد) مِن جملةِ ألفاظٍ جرَى استعمالُ العرَبِ لها لقَصْدِ الاستيعابِ والشُّمولِ إذا ورَدَت منفيَّةً، ذكرها ابنُ السِّكّيت في (باب ما يقال: ما بالدار أحدٌ)[1]، وبلغَ بِها خمسةً وعشرينَ لفظًا.

بُلُوغُ العَذَابِ فِي الشِّدَّةِ حَدًّا لَا نَظِيرَ لَهُ

علّةُ اختصاص الحواريّين دون العَالَمين بالعذاب في الآية الكريمة:

لمّا كانتِ الآية الكريمة متضمِّنةً قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وكان اللّه تعالى قد اختصَّ الحواريّين دون العالمين؛ بأن أنزلَ عليهم مائدة مِنَ السَّماء؛ ناسبه أن يختصَّ مَن كفَر بها بعذابٍ لا يعذِّبه أحدًا مِنَ العالمين، وفي هذا منَ التَّهديد والتَّرهيب ما لا يقادرُ قدره، قال ابن عمر: "إنّ أشدّ النّاس عذابًا يوم القيامة: المنافقون، ومَن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون"[2]، ولا شكّ أنّ عدل اللّه يقتضي أن يكون العذابُ متناسبًا شدّةً وخفّةً، مع عظمِ الجُرم وخفّتِه، ومع الإصرار وعدمه، ومع إقامةِ الحجّةِ بمعاينة المُعجزة، أو عدمِ ذلك، وهذا كلّه إمهالٌ لترك الفرصة لأوبة هؤلاء المعاندين، وتوبتِهم للّه ربّ العالمين، فإذا أصرّوا على ضلالهم فإنَّ اللّه تعالى بقدرته يُمهِل ولا يُهمِل، وحينها سيكون العذابُ شديدًا، بأكبرَ ممّا كانوا يتصوّرون، واللّه لا يظلمُ النّاس شيئًا، ولكنّهم يظلمون أنفسَهم فيهلكون.

العقابُ الواقعُ في مُنتهَى العدل الرّبّانيّ

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ

أَثَرُ دِلَالَاتِ اللَّامِ فِي تَوْجِيهِ المَعَانِي القُرْآنِيَّةِ

(1) ابن السكيت، إصلاح المنطق، ص: 275.
(2) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/118.

﴿أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَجوز أن تكونَ لِلْعَهْدِ، والمَعْنَى: لا أعذِّبُهُ أحدًا مِنْ عالَمي زمانِهم.

ويجوزُ أن تكونَ للاستغراقِ، والمَعْنَى: لا أعذِّبُهُ أحدًا من العالمينَ مطلقًا[1]، وهذا أظْهَرُ وأَقْوَى؛ لتقدُّمِ صيغَةِ العُمومِ قبل لفظِ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ وهيَ النَّكِرَةُ - ﴿أَحَدًا﴾ - في سياقِ النَّفْيِ.

بَلَاغَةُ التَّعْرِيضِ بِالعذابِ في الآية:

التَّحْذِيرُ مِنِ اقْتِرَاحِ الآيَات

في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تهديدٌ بليغٌ لِمَنْ يكْفُرُ بَعْدَ نُزولِ المائِدَةِ، وفيه تعريضٌ لهذهِ الأُمَّةِ بِنَهْيِها عن اقتراحِ الآياتِ[2]؛ لما يترتَّبُ على ذلكَ مِنَ العواقِبِ الوخيمَةِ حالَ التَّشكُّكِ فيها أو إنكارِها بَعْدَ وُرودِها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(العَالَمون) و(العَالِمون):

(العالَمون) بفتح اللّام: كلُّ ما سِوى اللهِ ﷻ؛ أي: ربُّ الملائكة والجنِّ والإنس والسّماوات والأرض والجميع. وأحيانًا يُطلَق العالَمين على الإنس فقط، كقول اللهِ ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: 47].

"والبابُ كُلُّهُ قياسٌ واحدٌ، ومِنَ البابِ العالَمونَ، وذلك أنَّ كُلَّ جِنسٍ مِنَ الخَلقِ فهو في نَفسِهِ مَعْلَمٌ وعَلَمٌ، وقال قَومٌ: العالَمُ سُمِّيَ لاجتماعِهِ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: 45]، قالوا: الخَلائِقُ أجمَعونَ. وأنشَدوا:

ما إنْ رَأَيْتُ ولا سَمِعْـ *** ـتُ بِمِثْلِهِمْ في العالَمينا"[3]

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/59.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/358.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

روي عنِ ابن عبّاس في تفسير: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: ربّ الجنّ والإنس، وقال قتادة: ربّ الخلق كلّهم، قال الأزهريّ: "والدّليل على صحّة قولِ ابن عبّاس قولُه ﷻ: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: 1]، وليس النّبيّ ﷺ نذيرًا للبهائم ولا للملائكة، وهم كلّهم خلق الله، وإنّما بُعِثَ نذيرًا للجنّ والإنس"(1).

وأمّا (العالمون): بالكسر، فهم ذوو العِلْم، كما قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: 43](2)، وعن بعضهم أنّ التّعلّم هو تنبّه النّفس لتصوّر المعاني. وإذا قيل لك: اعلمْ كذا، قلتَ: قد علمتُ، وإذا قيل لك: تعلّمْ كذا لم تقُل: قد تعلّمتُ(3)، فالعالَمون بالفتح، تُستعمل للعوالم المكوّنة للكون، والعالِمون بالكسر، يقصد بها أهل العلم، وشتّان بين المعنيين، فالفرق بينهما جليّ، وفي العلم والعالِمينَ، وقال الشاعر:

ما الفَضلُ إلّا لِأَهلِ العِلمِ إنَّهُمُ *** علَى الهُدَى لِمَنِ استَهدَى أَدِلّاءُ

فَقُمْ بِعِلمٍ ولا تَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا *** فالنّاسُ مَوتَى وأَهلُ العِلْمِ أَحْياءُ(4)

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (علم).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(4) الجرجانّي، أسرار البلاغة، ص: 265.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»